الخوف في عيون شابة

ـ ثلاثة شاورما دجاج، وعلبة تبولة، وأربعة مناقيش زعتر.

ـ ثواني وأحضر التبولة.

ـ الشطائر معي.

ـ بسرعة يا محمود، أريد أربعة مناقيش زعتر.

ـ ها هي التبولة.

ـ المناقيش جاهزة.

ـ الطلبيه جاهزة.. طلب رقم ٢٥٣.. طلب رقم ٢٥٣ .

نادى أحدهم بصوت عالٍ:

ـ أنا ٢٥٣ .

ـ تفضل طلبك.

كان هذا الحوار بين محمود ومسعد في تجهيز الطلبات كفريق في محل(شاميات للمشويات والأكلات السورية).

نظر مسعد في تحدٍ لمحمود:

ـ كنت أنا الأسرع هذه المرة.

أجابه سريعًا محمود:

ـ لا، بل أنا الأسرع.

مسعد:

ـ إذًا، لنراهن على الطلب الذي يليه.

محمود:

ـ اتفقنا.

كان يتابعهما من خلف ماكينة الحساب بعينين زرقاوين مبتسمًا، لطالما كان الشابان مجتهدين، يسعيان للقمة العيش، ولطالما كانا مشاكسين.. تفقَّد ذلك الرجل صاحب الخمسين خريفًا ببصره المكان، كل من يعمل لديه من أبناء وطنه المكافحون.. قاطعه صوت حمل له الحنين:

ـ كيف حالك، (أبا يزن)؟

تطلع لمصدره، يالله، إنه أبو أنس، صديقه في السنين العجاف.

ـ حبيبي (أبا أنس)، كيف حالك يا غالي؟

ـ الحمد لله يا أخي.

كان (أبو أنس)، ومعه ضيف شاب في مقتبل العمر.

ـ تفضلوا، شرفتوني، أهلًا وسهلًا، ماذا تشربان؟

أجابه (أبو أنس):

ـ سحلب لي و(لمصباح).

وأشار بيده لمرافقه الشاب.

صاح (أبو يزن) في أحد الفتيان، وهو يُطيل النظر للشاب:

- (محمد)، لو سمحت فنجانين سحلب للضيفين.

- الله يكرمك أخي الحبيب، كيف حال التجارة، (أبا يزن)؟

هكذا قال (أبو أنس).

- الحمد لله، أصبحنا معروفين في المنطقة بفضل لله.

- إن شاء الله، منها للأعلى يا غالي.

- يا رب، أخي.

أحضر (محمد) الفنجانين أمام الضيفين، أخذ (أبو أنس) رشفة من الفنجان، ثم نظر إلى (مصباح)، وقال له:

- أحلى فنجان سحلب تأخذه عند عمك (أبي يزن).

ابتسم له (مصباح) في خجل دون أن ينبس ببنت شفة.

فاستطرد (أبو أنس) مخاطبًا (أبا يزن):

- حبيبي، لي خدمة عندك، وأعلم أنك لن تردني كالمعتاد.

- حبيبي، أنتَ تأمرني

هكذا أجاب سريعًا (أبو يزن)، فأكمل صديقه الحوار:

- هذا الشاب المكافح اسمه (مصباح)، حضر حديثًا من العذاب، والله وحده يعلم كيف خرج من هناك، غير أنه فقد أسرته، ولا يملك مأوى له أو دخلًا.

نظر (أبو يزن) لـ(مصباح) من خلف نظارته العتيقة، نظرة شفقة، وخاطبه قائلًا:

- ونحن له دار وأهل.. من أين العزيز؟

- من دير الزور.

- أهل كرم وأخلاق يا (مصباح).
- أعزك الله، عمي.
- حمد الله على سلامتك يا بُني، لا تحمِل هم شيء، أنا وأخوتك هنا عونًا لك بعد الله تعالى.

ثم نادى (محمدًا)، فأتى له سريعًا:

- نعم، عمي (أبا يزن).
- خذ يا (محمد) أخاك (مصباح)، وعرِّفه على باقي أخوته والمكان.

أومأ له (محمد)، ثم اصطحب (مصباح) في هدوء.. كان (أبو أنس) يتابع المشهد، فلما غادر مصباح، ابتسم لصديقه وقال:

- دائمًا كريم، وابن أخ كريم يا (إسماعيل).
- حبيبي يا (أبا أنس)، إنْ لم نكن لبعضنا البعض، فمن يكون؟ وكيف نكون؟ هؤلاء الشباب لا ذنب لهم، استيقظوا يومًا على نيران، وحريق، وبلد مُحطم من كل الجهات، وأعداء أكثر من حبات الأرز، قدَرهم كان قاسيًا يا أخي، فإنْ كان لنا أنْ نُخفف عنهم، فليت ذلك ينفعهم بشيء.
- صدقت والله أخي، كل منهم بدلًا من أنْ يقضي شبابه على سرير دافئ بين أهله وأحبابه، يأكل ما لذَّ وطاب، ويستمتع مع أصدقائه، ويخطط لمستقبله، ذاق العذاب ويلات.. حربًا، ودمارًا، وشِتاتًا، وضياع أهل وأحلام.

تنهد بحزن (أبو يزن)، وهو يتذكر ابنه (يزن) ذا الأعوام الثمانية عشر، والذي قضى نحبه أثناء هروبهم من ويلات الحرب، تلك الحرب التي قصفت بأمانهم وديارهم والأهم دمائهم، تذكر يوم اقتربوا من الحدود للبنان، وظنوا بأنفسهم الأمان، وأحسوا أنها سويعات وينتهى كابوس الذل والعذاب، غير أنَّ كل ذلك تبخَّر كالسراب لحظة استوقفتهم سيارة لا يعلم حتى الآن إلى أي طائفة تنتمي، أو إلى أي مذهب أو حزب.. فسوريا أصبحت بيتًا خربًا، تختبئ فيه العفاريت والأشباح.

صاح قائد السيارة «الجيب» أنْ يحضروا كل مالهم وزادهم، وإلّا أفرغ رصاصه فيهم، ولأنَّه كان يَحمل معه زوجته وابنتيه، أخرج لهم سريعًا المال والعتاد، وتحرك ليعطيه لقائدهم، فاستوقفته يد (يزن) قائلًا:

ـ لا تفعل، أبتاه.

همس له بصوت منخفض جدًا:

ـ بلى يا ولدي، حتى نعف أنفسنا، وأمك، وأخواتك البنات.

أشار له (يزن) برأسه رافضًا هذه الكلمات، وفي عينيه كان يسكن الإصرار؛ لن يسمح لأبيه مجددًا أنْ يساوم عليهم بالمال لهؤلاء.. من هم ليأخذوا ما تبقَّى لهم، ويهربوا به وسط النيران بهذه السهولة؟!

نظر(إسماعيل) لعيني ولده الفتيه، وقال له:

ـ هذه المرة فقط، يا بني، ليتركونا نرحل، اقتربنا من لبنان، وسنكون هناك في أمان.

تطلع له (يزن) وقد امتلأت عينيه بالتحدي:

ـ ليس هذه المرة أيضًا يا أبي، ما عاد معنا إلّا القليل.

ثم فتح باب السيارة بسرعة، وخرج يخاطب قائدهم بصوت مرتفع:

ـ لا نملك المال، وليس معنا شيء لكم.

كانت عينا القائد كالصقر.. ثاقبتين، كهذا رآهما (إسماعيل) لمّا استلّ البندقية، وفي ثوانٍ أصاب الفتى بالرصاص فأرداه قتيلًا في الحال.. صرخت الأم والفتيات.. نظر (إسماعيل) لابنه فزعًا، فرآه لا يتحرك وعينيه مفتوحتين.. أدركت لحظتها أنه مات، فانطلق بالسيارة مسرعًا في حركة باغتت المجرمين، وجرت مطاردة بينهم حتى أنجاهم الله تعالى، ووصلوا إلى حدود لبنان.. أنجاهم أجسادًا تقطر أسى وحزنًا وغضبًا على فقيدهم الوحيد (يزن).. أجسادًا فقدت الأمان ومفاتيح السلام، وتقطعت منها خيوط الفرح والسعادة، وسكن بدلًا منها الحزن وحشًا يفترسهم بالليل قبل النهار.

عاود الرد على رفيقه فقال:

ـ الحمد لله على كل حال

لمح (أبو أنس) الوجع يقفز لمُحَيَّا صديقه، فأسرع يقول:

ـ الحمد لله الذي سخرك لأمثالهم عونًا، ودعمًا، وأبًا، فأنت منذ استقر بك الحال في الإسكندرية لم تترك طارقًا يطرق بابك وخذلته يا أخي، والله إنك لتنصر القلوب المكلومة والمهزومة.

ـ يا أخي «المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا»، فإنْ لم نكن كذلك في هذا الكرب والهم، فمتى نكون؟! أخبرني عن عملك.. كيف أصبح؟

ـ الحمد لله، أرسل أحدهم يطلب نِقاشة بيته، وسوف يعطيني أجرًا جيدًا.

ابتسم (أبو يزن) وقال:

ـ الحمد لله، بإذن الله فاتحة خير عليك وعلى أولادك، يا أخي.

ـ بإذن الله ـتعالىـ ولكنه طلب تسليمه خلال أسبوعين، وهذا فوق مقدرتي الآن.

ـ تستطيعها، استعن فقط بالله.

ـ ونعم بالله، يا أخي.

ابتسم (أبو يزن) لصديقه وهو يربت على كتفه، ويقول:

ـ بهذا الخبر السعيد، عشاؤك الليلة معي، ولأسرتك الغالية أيضًا، فماذا تطلب؟

رد صديقه الابتسامة بابتسامة أجمل، ثم قال:

ـ لحمًا بالعجين.. على شرط أنْ يكون من يديك الكريمتين.

ضحك (أبو يزن)، وقال له بسرعة:

ـ عيوني، أخي.

ثم نادى (محمدًا):

ـ أحضر لي بعض العجين، سأصنع لـ(أبي أنس) الليلة أحلى لحم بالعجين.